المبحث الثاني

سياق الاستعارة النسقية في القرآن الكريم

تعني الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها فِي أصل اللغة إلى غيره لغرض يريده المتكلم، وذلك الغرض إمّا أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإثارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه استعماله الجديد(١). والاستعارة نوع من المجاز لمكان التناسب بينه وبين معنى معرض نفس المشبه به، وهي أن تذكر طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدّعياً دخول المشبه فِي جنس المشبه به، بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به(٢).

إذن فالاستعارة: هي «استعمال اللفظ فِي غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي»(٣).

والاستعارة من المجاز اللغوي، وهي تشبيه حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائماً، ويعد سياق الاستعارة أبلغ من تراكيب التشبيه، وأشد وقعاً فِي نفس المخاطب، لأنّها تأخذ بجامع الأفئدة، وتملك على القارئ والسامع لبّهُما وعواطفهما، وهي ليست إلاّ تشبيهاً مختصراً، لكنها أبلغ منه، ولابد فِي الاستعارة عدم ذكر وجه التشبيه، ولا أداة التشبيه، بل ولابد أيضاً من تناسي

---

(١) ينظر: الصناعتين: ٦٦٨.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٦٩.

(٣) ينظر: البلاغة العربية: ٢/٢٢٩؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٥؛ الخلاصة فِي علوم البلاغة: ٢٣.

التشبيه الذي من أجله وقعت الاستعارة فقط[1].

والاستعارة هُوَ أن يستعار الشيء المحسوس لشيء المعقول، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[3]، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[4]، فالاستعارة أوكد فِي النفس من الحقيقة، وتفعل فِي النفوس ما لا تفعله الحقيقة، وقول (فتيلا) أنفى للقليل والكثير من قوله شيئاً[5].

والحقيقة هي اللفظ المستعمل فِي معناه الأصلي، وأقسامها ثلاثة[6]:

- حقيقة لغوية، كالسيارة فِي لغة العرب هي قافلة.

- حقيقة شرعية، كالصلاة كانت فِي الشرع حقيقة وَفِي الدعاء مجاز شرعي.

- حقيقة عرفية، كالقهوة فِي العرف العام حقيقة فِي مشروب قشر البن.

فانتقل الاستعمال الحقيقي إلى الاستعمال المجازي، وَهَذَا تقريب لبيان الاستعارة التي هي نوع من المجاز اللغوي، والذي هُوَ استعمال اللفظ فِي غير معناه الأصلي.

وفضل الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنّها تفعل فِي نفس السامع

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٦؛ ينظر: الخلاصة فِي علوم البلاغة: ٤٣.

(٢) سورة النساء: ٤٩.

(٣) سورة النساء: ١٢٤.

(٤) سورة فاطر: ١٣.

(٥) ينظر: البديع فِي نقد الشعر: ٤١.

(٦) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٢.

ما لا تفعله الحقيقة الأصلية، قَالَ تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[1]، معناه سنقصد؛ لأنّ القصد لا يكون إلاّ مع الفراغ، فهم فِي الفراغ هاهنا معنى ليس فِي القصر، وَهُوَ التوعد والتهديد[2].

❑ **أركان الاستعارة** ثلاثة[3]:

١- مستعار منه — وَهُوَ المشبه به.

٢- ومستعار له — وَهُوَ المشبه.

٣- ومستعار — وَهُوَ اللفظ المنقول.

فكل مجاز يبنى على التشبيه (يسمى استعارة). قَالَ تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[4] وهنا استعارة؛ لأنّ الاشتعال يوضع فِي أصل اللغة للشيب، فالمستعار منه هُوَ النار، ومستعار له هُوَ شيب الرأس، والمستعار هُوَ الاشتعال المنقول من اللفظ الحقيقي الأصلي وَهُوَ اشتعال النار إلى اللفظ المجازي المستعمل فيه وَهُوَ اشتعال شعر الرأس شيبا، فَلَمَّا نقل إليه بَانَ المعنى لما اكتسبه عن التشبيه؛ لأنّ الشيب لما كَانَ يأخذ فِي الرأس، ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتّى يحيله إلى غير لونه الأول، كَانَ ذَلِكَ بمنزلة النار التي تشتعل فِي الخشب حتّى تحيله إلى غير حاله الأول، وَهَذَا هُوَ نقل العبارة عن الحقيقة فِي الوضع للبيان، ولابد أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها[5]. وهذا

---

(١) سورة الرحمن: ٣١.

(٢) ينظر: الصناعتين: ٢٦٩.

(٣) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٦؛ وينظر: الخلاصة فِي علوم البلاغة: ٤٣.

(٤) سورة مريم، من الآية: ٤.

(٥) ينظر: سر الفصاحة: ١١٨.

التناسب والتناسق بين الاشتعال وبين الشيب يحددهُ السياق الذي جاءت فيه الاستعارة كون الاشتعال في أصل اللغة للشيب ثم نقل هذا المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي الذي أعطى دلالة جديدة وجمالاً فريداً حتى أضفى دلالةً الاشتعال الحقيقي إلى المجازي وهو اشتعال الشعر في الرأس شيباً وإحالته من السود إلى البياض مثل اشتعال النار وإحالتها في النهاية إلى رماد وبياض وهذا من روائع الاستعارات القرآنية الفريدة.

❑ أقسام الاستعارة باعتبار القرينة[1]:

١- **التصريحية**: وهي ما صُرّح فيها بلفظ المشبه به. قَالَ تعالى: ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ** ﴾[2]، والصراط الطريق، فقد شبه الدين بالصراط بجامع التوصل إلى الهدف فِي كُلّ منهما حذف المشبه وَهُوَ الإسلام وأبقى المشبه به.

٢- **المكنية**: وهي ما حُذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه. قَالَ تعالى: ﴿ **وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا** ﴾[3]، فقد شبه الذلّ بالطائر، وحذف المشبه به، ولكن رمز إليه بشيء من لوازمه وَهُوَ الجناح، فلم يذكر من أركان التشبيه إلاّ الذل وَهُوَ المشبه، فدلت على الاستعارة هَذَا الرمز وَهُوَ القرينة التي تبيّنت من السياق القرآني فِي الآية، وهي الإشارة على ذَلِكَ.

٣- **التخييلية**: وهي قرينة المكنية، قَالَ الشاعر:

---

(١) ينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٤٥، ٤٦؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٨.

(٢) سورة الفاتحة: ٦.

(٣) سورة الإسراء: ٢٤.

وإذا المنية أنــشبت أظفارهــا ألفيت كُــلّ تميمــة لا تنفــع

«فقد شبه الشاعر المنية بالسبع بجامع الاغتيال فِي كُلّ، واستعمال السبع للمنية وحذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وَهُوَ الأظفار على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، وقرينتها لفظة (أظفار) ثم أخذ الوهمُ فِي تصوير المنية بصورة السبع، فاخترع لها مثل صورة لأظفار، ثم أطلق على الصورة التي هي مثل صورة الأظفار لفظ الأظفار. فتكون لفظة أظفار استعارة تخييلية، لأنّ المستعار له لفظ أظفار صورة وهمية تشبه صورة الأظفار الحقيقية وقريبنتها إضافتها إلى المنية، ونظراً إلى أنّ الاستعارة التخييلية قرينة المكنية فهي لازمة لها لا تفارقها، لأنّ لا استعارة بدون قرينة»[1]، وسميت استعارة تخييلية؛ لأنّ هنا المستعار لم يتحقق حسّاً وعقلاً[2].

❑ أقسام الاستعارة باعتبار المستعار[3]:

١- **الاستعارة أصلية:** إذا كَانَ اللفظ الذي جَرت فيه اسماً جامداً. قَالَ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[4]. وسميت أصلية لعدم بنائها على تشبيه تابع لتشبيه آخر معتبر أولاً.

٢- **الاستعارة تبعية:** إذا كَانَ اللفظ الذي جرت فيه مشتقاً أو فعلاً. قَالَ تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾[5]، وكل استعارة تبعية قرينتها

---

(١) البلاغة الميسرة: ١٧٨.

(٢) ينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٤٤.

(٣) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٥٢؛ وينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٤٩.

(٤) سورة إبراهيم: ١.

(٥) سورة طه: ٧١.

مكنية، وإذا أجريت الاستعارة فِي واحدة منهما امتنع إجراؤها فِي الأخرى، وهذا ما يوحيه هذا الحرف في السياق مع الفعل أو دونه من صورة دلالية تكونت منه -مجازاً أو حقيقة- وهذا من جمال الاستعارة ونسقها البياني العجيب في استعمال الحروف للدلالة على الفعل، فالحرف (في) لا يعني ظرفاً أدخل المصلوبون فيه، ولكن لما كانت الجذوع متمكنة من المصلوبين تمكن الظرف من الظروف ساغ استعمالها فيه على سبيل الاستعارة.

❑ **أقسام الاستعارة باعتبار الطرفين**[1]:

١- **العنادية**: وهي التي لا يمكن اجتماع طرفيها فِي شيء واحد لتنافيهما، كاجتماع النور والظلام، والحياة والموت.

٢- **الوفاقية**: هي التي يمكن اجتماع طرفيها فِي شيء واحد لعدم التنافي. قَالَ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[2]. أي: ضالاً فهديناه ففي هذه الآية استعارتان، الأولى: فِي قوله: (ميتاً)، شبه الضلال: بالموت، بجامع ترتب نفي الانتفاع فِي كلٍّ، واستعير الموت للضلال، واشتق من الموت بمعنى الضلال ميتاً بمعنى ضالاً. وهي عنادية؛ لأنَّه لا يمكن اجتماع الموت والضلال فِي شيء واحد. والثانية: استعارة الأحياء للهداية وهي وفاقية، لإمكان اجتماع الإحياء والهداية فِي الله تعالى.

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٥٣؛ وينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٥٠.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٢.

❑ **أقسام الاستعارة باعتبار الجامع**[1]:

١- **عامية:** وهي القريبة المبتذلة التي لاكتها الألسن فلا تحتاج إلى بحث ويكون الجامع فيها ظاهراً، نحو: رأيت أسداً يرمي.

٢- **خاصية:** وهي الغريبة التي يكون الجامع فيها غامضاً لا يدركه إلاّ أصحاب المدارك من الخواص، نحو: قول كثير يمدح عبد العزيز بن مروان:

غَمرُ الرداء إذا تبسّم ضـــاحكاً غلقت لضحكته رقابُ المـــال

استعار الرداء للمعروف، لأنه لا يصون ويستر عرض صاحبه كستر الرداء ما يلقي عليه وأضاف إليه الغمر، وَهُوَ قرينة على عدم إرادة معنى الثوب.

❑ **أقسام الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من الملائمات وعدم اتصالها**[2]:

١- **الاستعارة المرشحة:** ما ذُكر معها ملائم المستعار منه، أي: المشبه به. قَالَ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾[3] استعير الشراء للاستبدال والاختيار، ثم فرع عليها ما يلاءم المستعار منه من الربح والتجارة.

٢- **الاستعارة المجردة:** هي التي قرنت بملائم المستعار له، أي: (المشبه) نحو: اشتر بالمعروف عرضك من الأذى.

وسميت كذلك لتجريدها عن بعض المبالغة لبُعد المشبه حينئذ عن المشبه به بعض بُعد، وذلك ببعد دعوى الاتحاد الذي هُوَ مبني الاستعارة.

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٨٣؛ وينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٥٠.

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٨٤؛ وينظر: التلخيص فِي علوم البلاغة: ٥٠، ٥١.

(٣) سورة البقرة: ١٦.

٣- **الاستعارة المطلقة:** هي التي لم تقترن بما يلاءم المشبه والمشبه به، قَالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ...﴾[1].

ولا يعتبر الترشيح والتجريد إلاّ بعد أن تتم الاستعارة باستيفائها قرينتها لفظية أو حالية، ولهذا لا تسمى قرينة التصريحية تجريداً، ولا قرينة المكنية ترشيحاً.

٤- **الاستعارة التمثيلية**[2]: هي تركيب استعمل فِي غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي وهناك من عدَّ بعض الصور الحقيقية من الاستعارة التمثيلية نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[3] وهذه من الصور الحقيقية في النسق القرآني في مشاهد القيامة والسياق يؤكد ذلك من خلال جمال التصوير والروعة في التشبيه رغم اتفاق القدماء على أنَّ التشبيه أصل والاستعارة فرع، وهذه الصورة الاستعارية والتشبيهية التي جاءت ضمن سياق ونسق مشاهد القيامة هي في ﴿ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، من شدة الهول والموقف، وهذا من أبلغ الاستعارات التمثيلية، ونحو: (أنت ترقُمُ على الماءِ) وَهَذَا إذا قلته لمن يلجُّ فِي شأنٍ لا يمكن الحصول منه على غايةٍ.

---

(١) سورة البقرة: ٢٧.

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٨٧.

(٣) سورة الحج: ١-٢.

❑ **نماذج من سياق الاستعارة النسقية في القرآن الكريم:**

ومنه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل، الآية: ١٢].

تحدّث علماء البلاغة عن سياق الاستعارة ونسقها ونجد صيغاً مجازية أهمها:

الأولى: استعارة القرية للأهل أو أنَّها مجاز، ذكرت القرية والمقصود أهلها وعلاقة المجاز المحلية، إذ أطلق المحل وأريد الحال.

الاستعارة الثانية: أذاقها الله لباس: استعارة الذوق للباس هي استعارة مكنية.

الاستعارة الثالثة: لباس الجوع والخوف: استعار اللباس للجوع والخوف، وهي استعارة مكنية[1].

وهكذا فهي استعارات ثلاث بينها من التناسب ما لا يخفى، ولا مانع من أن تجيء استعارة مبنية على استعارة، وتوجد فيها المناسبة المطلوبة.

اللباس: فيه إشارة شمول الضرر والأذى للقرية وأهلها.

الإذاقة: فيها إشارة لمبلغ الألم، والمناسبة بين الأذى والألم واضحة، ومتناسقة ومبنية عليه.

وعطف الخوف على الجوع إشارة لخطورة الابتلاء؛ لأنَّهما من أخطر المصائب والابتلاءات.

---

(١) ينظر: المثل السائر: ١١٤/٢؛ وإعراب القرآن وبيانه: ٣٧٦/٥.

ولم يقل: (فكساها الله لباس...) ولم يقل: (فأذاقها الله طعم...) وكان الجمع بين الذوق واللباس أشد إثارة للإحساس وإطلاقاً للخيال، وهي من الصور الفريدة والجميلة في حسنها وجمالها.

والجمع بين الحاستين: (الذوق واللمس) أقوى من إفراد التعبير في واحدة مهما: بأن يقول كساها لباس أو أذاقها طعم، وهو ما أشار إليه علماء البلاغة في ذكر الاستعارة المرشحة والمجردة في هذا المثال. فكان الجمع بين الحاستين في الصورة أدعى لإدراك الجمال وأوضح في بيان النسق وروعة الترتيب، وهذا السياق النسقي المرتب والمنضبط جعل هذه الاستعارات من روائع جماليات البيان القرآني.

ومن روائع الأسلوب الذي عمدته هذه الصورة الاستعارية هو تحول الخوف والجوع إلى شيء يتذوق، وهذا من أساليب التجسيم في القرآن الكريم.

وذلك حين تتداخل في التعبير استجابات الحواس يتضاعف الأثر فالجوع والخوف يتذوقان ويلبسان معاً[1].

وهذه زاوية جمالية أخرى من خلال رؤية الصورة ووضوحها. ومن خلال تراكم الحواس وتداخلها وهي عندهم تعني أن تعطي المسموعات ألواناً، والمشمومات أنغاماً، والمرئيات عطراً.

وهذه التناسقات الرائعة والألفاظ المتناسقة والعبارات المسبوكة أعطت لهذه الاستعارة بُعداً جمالياً وإعجازاً بلاغياً قلّ نظيره ولا نجده إلاّ في كتاب الله العزيز الحكيم.

---

(١) ينظر: النقد الأدبي الحديث: ٣٩٥؛ والنسق القرآني دراسة أسلوبية: ٥٤٢.